مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد السادس والخمسون
رجب ١٤٤١هـ

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail : arabicjournal@imamu.edu.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسرار التنوع القرآني في أحوال الحياة الدنيا

د. عبد العزيز بن صالح الدعيلج
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

من أسرار التنوع القرآني في أحوال الحياة الدنيا

د. عبد العزيز بن صالح الدعيلج

قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ٢٥/ ٢/ ١٤٤١هـ تاريخ قبول البحث: ١٤/٤/١٤٤١هـ

ملخص الدراسة:

اعتنى القرآن الكريم بعرض حقيقة الدنيا، وبيّن أثرها الخادع وتأثيرها البارق، وأبرز صفاتها تحذيرا من الركون إليها، والدعة إلى ظلالها، فالدنيا زُينت للكفار بخلاف الآخرة، وهي متاع الغرور، ومتاعها قليل، والدنيا لعب ولهو، وهي كمثل الزرع اليابس الذي نزل عليه المطر من السماء فاخضر ثم يبس فأصبح هشيماً. والقرآن يقرّر بكل وضوح وقوة وصراحة قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها، وتضاؤلها في جنب الآخرة.وهذه التعبيرات البيانية تدلّ على أنّ زخارف الدنيا وبريقها الخادع يُعد أحد الموانع المهمّة للتكامل المعنوي والصعود في درجات الكمال للإنسان، وما دام هذا المانع موجوداً فإنّه لا يصل إلى شيء من هذه الكمالات المعنوية.وهذا البحث يسلط الضوء على التنوع البياني والجمالي في إبراز أثر هذه الحياة الدنيا من خلال السياق القرآني.

كلمات مفتاحية: إعجاز، أسرار، تنوع، أحوال، الدنيا.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد اعتنى القرآن الكريم بعرض حقيقة الدنيا، وبيّن أثرها الخادع وتأثيرها البارق، وأبرز صفاتها تحذيرا من الركون إليها، والدعة إلى ظلالها، فالدنيا زُينت للكفار بخلاف الآخرة، وهي متاع الغرور، ومتاعها قليل، والدنيا لعب ولهو، وهي كمثل الزرع اليابس الذي نزل عليه المطر من السماء فاخضر ثم يبس فأصبح هشيماً. والقرآن يقرّر بكل وضوح وقوة وصراحة قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها، وتضاؤلها في جنب الآخرة.

وقد حاول البحث أن يقف على أسرار تراكيب الآيات ودلالاتها، وخصائص نظمها، وصورها البيانية، وعلاقاتها في سياقاتها المختلفة مع استجلاء مواطن الإعجاز فيها.

وقد جاء اختياري لهذا الموضوع لأهميته باعتبار الدنيا هي ذلك الظرف الذي يعيش فيه الإنسان إلى أن يختاره الله عز وجل، ثم لتنوع ورود الأساليب والصور لعرض الدنيا، والوصول إلى هدف حقارتها والتزهيد فيها ومقارنة بالآخرة الحياة الباقية للمؤمن والدائمة له، إضافة إلى تميّز الخطاب القرآني الرباني في عرض تلك الآيات وغناه بمجموعة من الأسرار البيانية والنظمية فيها.

ويهدف البحث إلى الوقوف على بعض اللطائف والأسرار البلاغية والأسلوبية في آيات الحياة الدنيا وتنوعها، واستنباط الدلالات المعنوية من وراء تلك الأسرار، وفهم أبعادها في ذهن المتلقي. وقد جاءت الخطة بتقسيم

الآيات القرآنية آية آية في مطالب تشملها، وتتبع ما في ألفاظها وجملها من أسرار ولطائف حفاظا على تميز السياق القرآني وخصوصيته بالمنهج التحليلي لدراسة الآيات. فتمّ تقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد يتناول ورود الدنيا في القرآن الكريم حسب كثرتها، وأحد عشر مطلبا، هي على الترتيب: الدنيا والمتاع، ثواب الدنيا، حرث الدنيا، حب الدنيا، الدنيا والعَرَض، الدنيا والغائية، الدنيا واللعب واللهو، الدنيا والغرور، الدنيا والزينة، الدنيا والزهرة، وتشبيه الدنيا بالماء. ثم خاتمة وثبت للمصادر والمراجع.

* * *

تمهيد: ورود الدنيا في القرآن الكريم:

بادئ ذي بدء فقد جاء في معاجم اللغة العربية عن مصطلح الدنيا المعاني الآتية:

•دَنا يَدنو؛ فهو دان: قرب، وسميت الدنيا؛ لأنها دنت، والنسبة إليها دنياوي ودنيي ودنيوي، والدناوة: القرابة، ودانيت بين الشيئين: قاربت بينهما[1] والعاجلة: الدُّنيا.[2] وكذلك السماء الدنيا هي القُرْبى إلينا.[3]

فالدنيا في دلالتها تتنوع بين: قُرب الأجل؛ أي: إنها قصيرةُ الأمد ستنتهي بسرعة، أو قرب المكان، أو القرب الحسي، أي: أنها قريبةٌ في متناول اليد، أو هي مُهانة المكانة "دنية" أو "دنيئة"؛ بمعنى حقيرة خسيسة لا قيمة لها، وأيًّا كان المعنى فالأمرُ واضحٌ فيها وجَلِي، فهي أمد وليس أبد، ونحن نعيشُها لنقدم ما نستطيع وصولاً إلى الحياة "الآخرة" الأبدية.

والمتأمل في لفظ (الدنيا) في القرآن الكريم يجد أنه جاء مضافا إليه في خمسة أوصاف: فقد أضيف إلى وصف (متاع) في ثمانية مواضع، وأضيف إلى وصف (العَرَض) في ثلاثة مواضع، وأضيف إلى وصف (الزينة) في موضعين، وأضيف إلى وصف (الزهرة) في موضع واحد، وأضيف إلى وصف (الحرث) في موضع واحد مما سيجليه هذا البحث، ويستبطن أسراره، وهذه الأوصاف الخمسة التي أضيف إليها لفظ (الدنيا) تدور حول معنى

---

١ المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ٩/ ٣٦٢.

٢ العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ٨/٧٥.

٣ تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، ١٤ /١٣٣.

واحد، وهو ما أودعه الله في هذه الدنيا من مغريات ومسرات ومفاتن ؛ ابتلاءً للعباد واختباراً لهم ؛ ليستبين الصالح من الطالح، ويتضح أمر طالب الآخرة من طالب الدنيا .وهذه التعبيرات تدلّ على أنّ زخارف الدنيا وبريقها الخادع يُعد أحد الموانع المهمّة للتكامل المعنوي والصعود في درجات الكمال للإنسان، وما دام هذا المانع موجوداً فإنّه لا يصل إلى شيء من هذه الكمالات المعنوية.

واستقراء المواضع التي ورد فيها لفظ (الدنيا) في القرآن الكريم، يرشد إلى أن هذا اللفظ جاء في سياقات ثلاثة: أولها: التحذير من الدنيا. ثانيها: تفضيل الآخرة على الدنيا. ثالثها: الأخذ بنصيب من الدنيا، مع جعل الآخرة هي المقصد الأهم والأول. ونحن تالياً نفصل بعض الشيء في هذه السياقات الثلاثة.

أما الحياة الدنيا فتعني في آيات القرآن استغراق الإنسان في هذه الحياة وانغماسه فيها، فكأنّ تعبير الحياة الدنيا صورة لانصراف الإنسان عن طاعة ربّه وغفلته عن الآخرة. ولم يكتف القرآن الكريم ببيان حقيقة الدنيا والتحذير منها، بل قرر الوجهة الأساس التي ينبغي على المسلم أن يجعلها نُصب عينه، وهي الدار الآخرة ؛ إذ هي الدار الحقيقية الباقية، وهي الجديرة بالاهتمام والاعتناء، ولا ينبغي للعاقل الفطن أن يقدم ما يفنى على ما يبقى. ومن هنا كان البحث لدراسة أسرار التنوع في وصف الحياة الدنيا.

* * *

من أسرار التنوع في أحوال الحياة الدنيا:

المطلب الأول: الدنيا والمتاع:

ذكر ابن قتيبة دلالة المتاع، فقال: " المتاع: المدّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ البقرة: ٣٦ وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الأنبياء: ١١١ ومنه يقال: متع النهار. ويقال: أمتع الله بك. والمتاع: الآلات التي ينتفع بها، قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ الرعد: ١٧ والمتاع: المنفعة، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾ الواقعة: ٧٣ وقال تعالى: ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾الرعد: ١٧ وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ المائدة: ٩٦ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ النور: ٢٩ أي ينفعكم ويقيكم من الحرّ والبرد، يعني الخانات. ومنه: متعة المطلّقة".[١] وأصل الإمتاع: الإطالة. يقال: أَمْتَعَ اللهُ بك ومتّع الله بك إِمْتَاعا وَمَتَاعا. والشيء الطويل: مَاتِعٌ. ويقال: جبل ماتِعٌ. وقد مَتَع النَّهار: إذا تطاوَل.[٢] وكلّ موضع ذكر فيه «تمتّعوا» في الدّنيا فعلى طريق التّهديد، وذلك لما فيه من معنى التّوسّع.[٣] والمُتْعة والمَتَاع: اسمان يقومان مقام المصدر الحقيقي، وهو التمتيع. وأَمتعه الله بكذا أي متَّعه.[٤] وقد ارتبط ذكر المتاع بالحياة الدنيا

---

١ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ٢٧٥- ٢٧٦.

٢ غريب القرآن، ابن قتيبة، ٢٠١.

٣ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٧٥٧.

٤ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي: ٤/ ٤٧٨.

ارتباطا وثيقا ؛ كونه يوصل إلى حقيقتها. قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران : ١٤

والقرآن الكريم في ربطه الدنيا بالمتاع ، وتعليقه لذائذها بها إنما يهدف إلى مقابلتها بنعيم دائم لا يزول ، كما أن النظم القرآني من خلال تلك المقابلة يسعى إلى الترغيب في الآخرة ، والتنفير من الدنيا. " تأمل هذا البديل ، ففي الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمَّت وشملت ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة كما تقدم في ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ محمد : ١٥ ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَ لاَ يُنْزِفُونَ﴾ الواقعة : ١٩ وغير ذلك مما ينص على الخيرية في الآخرة."[١]. ومن هنا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها في أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام " وقد سيق هذا لا على سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هذا حاله فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة." [٢] وإذا رجعنا إلى مناسبة ذكر الآية يتبين لنا أنه تعالى لما ذكر عناد من كفر من النصارى ، واليهود ، والمشركين ، وجحودهم ، وكفرهم ، ذكر علة الكفر وبين سببه ، ألا وهو ما زينَّه تعالى

١ أضواء البيان ، الشنقيطي ، سورة الأعلى : ٥٠٥/٨.

٢ المصدر السابق : ٥٠٥/٨.

لبني البشر عامة ليفتنهم فيه ويمتحنهم به وهو حب الشهوات. وقد جاء سياق الآية بأسلوب القصر: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ليفيد قصر المسند على المسند عليه، أي ما ذكر من أصناف المحبوبات متاع الحياة الدنيا لا غير، أما الآخرة فلا ينفع فيها شيء من ذلك بل لا ينفع فيها إلا الزهد فيه والإعراض عنه إلا ما لابد منه للبلغة به إلى عمل الدار الآخرة، وهو الإيمان وصالح الأعمال، والتعبير باسم الإشارة (ذلك) فيه " تحقير لها ليزهد فيها الناس"[1] وفيه إيحاء آخر ذكره الطبري، وهو أنه " كنّى بقوله: "ذلك" عن جميعهن وهذا يدل على أن "ذلك" يشتمل على الأشياء الكثيرة المختلفة المعاني، ويكنى به عن جميع ذلك".[2]، كما جاء المتاع منكرا مؤذنا بالقلة، قال ابن عادل الدمشقي: " وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أنواعاً من الفصاحة والبلاغة، منها : الإتيان بها مجملة، ومنها جعله لها نفس الشهوات؛ مبالغة في التنفير عنها، ومنها : البداءة بالأهم فالأهم، فذكر - أولاً – النساء؛ لأنهن أكثر امتزاجاً، ومخالطة بالإنسان...ومنها الإتيان بلفظ يشعر بشدة حب هذه الأشياء، بقوله : " زينة " والزينة محبوبة في الطباع. ومنها: بناء الفعل للمفعول؛ لأن الغرض الإعلام بحصول ذلك. ومنها: إضافة الحب للشهوات، والشهوات هي الميل والنزوع إلى الشيء. ومنها: التجنيس (القناطير المقنطرة). ومنها: الجمع بين ما يشبه المطابقة في قوله: (الذهب والفضة)؛ لأنهما صارا متقابلين في غالبِ العرف. ومنها: وصف " القناطير " بـ " المقنطرة " الدالة على تكثيرها مع كثرتها

---

١ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ١٤٧/١.

٢ جامع البيان، الطبري: ٢٥٨/٦.

في ذاتها. ومنها: ذكر هذا الجنس بمادة " الخيل " لما في اللفظ من الدلالة على تحسينه، ولم يقل: الأفراس، وكذا قوله " الأنعام "، ولم يقل: الإبل والبقر والغنم؛ لأنه أخصر."[1] وإذا كان هذا حال الدنيا فإنه مدعاة للنظر في الآخرة والترغيب في نعيمها والتنافس عليها فالآية بعدها جاءت مرغبة كل الترغيب للآخرة على الدنيا ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران: ١٥. وكان افتتاحها بلفظ (قل) اهتماما بالمقول، ثم بالاستفهام المفيد للعرض تشويقا للمخاطبين إلى تلقّي ما سيقصّ عليهم.[2] فمتع الدنيا مهما كثرت وتنوعت فهي إلى زوال، وأما اللذائذ الباقية الخالدة فهي التي أعدها الله لعباده المتقين في الآخرة، مما دعا البيضاوي يؤكد على أنها " تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية".[3]

وفي سياق ارتباط المتاع بالدنيا ينتقل السياق القرآني نقلة أخرى ليخصص الحياة الدنيا بالمتاع الخادع، الذي يغرّ صاحبه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ آل عمران: ١٨٥ ولكن الأسلوب الذي أكدت به تلك القضية يختلف، فهو أسلوب القصر بالنفي

---

١ اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي: ٥/٨٠- ٨١.

٢ انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣/١٨٣- ١٨٤.

٣ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٢/٨.

والاستثناء الذي هو أقوى طرق القصر والتخصيص، وهذا يذكرنا بارتباط الآية بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد، وتفنيد المنافقين في مزاعمهم أن الناس لو استشاروهم في القتال لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا، فبعد أن بيَّن لهم تعالى ما يدفع توهَّمهم أن الانهزام كان خذلانا من الله، وتعجبهم منه كيف يلحق قوما خرجوا لنصر الدين وأنه سبب للهزيمة بقوله: ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ آل عمران: ١٥٥، ثم بيّن لهم أن في تلك الرزية فوائد بقوله الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُم﴾ آل عمران: ١٥٣ وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٦٦، ثم أمرهم بالتسليم لله في كل حال فقال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ آل عمران: ١٦٦ وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٥٦ الآية. وبيَّن لهم أن قتلى المؤمنين الذين حزنوا لهم إنما هم أحياء، وأن المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم لا يُضيع الله أجرهم ولا فضل ثباتهم، وبيَّن لهم أن سلامة الكفار لا ينبغي أن تُحزن المؤمنين ولا أن تسر الكافرين، وأبطل في خلال ذلك مقال المنافقين بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ آل عمران: ١٥٤ وبقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ آل عمران: ١٦٨ إلى قوله: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ آل عمران: ١٦٨ ختم ذلك كله بما هو جامع للغرضين في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ آل عمران: ١٨٥؛ لأن المصيبة والحزن إنما نشأ على الموت ممن استشهد من خيرة المؤمنين، يعني أن الموت لما كان غاية كل حي، فلو لم يموتوا اليوم لماتوا بعد

ذلك فلا تأسفوا على موت قتلاكم في سبيل الله، ولا يفتنكم المنافقون بذلك.[1] وقد أكّد غير واحد من المفسّرين أن مقام الآية مقام التسلية، كما ذكر ذلك الفخر الرازي " اعلم أن المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين، أحدهما: أن عاقبة الكل الموت وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول ولا يبقى شيء منها والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه. والثاني: أن بعد هذه الدار دار يتميز فيها المحسن عن المسيء ويتوفر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء وكل واحد من هذين الوجهين في غاية القوة في إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء. "[2] ويلفت ابن كثير إلى ملمح آخر من هذا الختام، وهو " تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية، قليلة زائلة. "[3] وما ذكره ابن كثير له صلة وثيقة بمقصد الآية من موقف المؤمن من الدنيا، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغرّ بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر. وقد شبهت الدنيا بمتاع خادع غارّ صاحبه، لا يلبث أن يضمحل ويذهب، قال الزمخشري: " شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغرّ، حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته. "[4] وقد تنوعت

---

١ انظر: التحرير والتنوير: ٤/١٨٨.

٢ التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٩/٤٥١.

٣ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢/١٧٩.

٤ الكشاف، الزمخشري: ١/٤٤٩.

كلمات السلف في تقريب هذا المعنى، ففسرّه عكرمة بالفأس، والقصعة، والقدر. وفسره الحسن فقال: هو كخضرة النبات، ولعب البنات لا حاصل له يلمع لمع السراب، ويمر مرّ السحاب، وهذا من عكرمة والحسن على سبيل التمثيل والتقريب. وقال عكرمة أيضاً: متاع الغرور القوارير التي لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الدنيا كله. وهذا تشبيه من عكرمة أيضا.[1] وإنما وصف عيش الدنيا بذلك؛ لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء، وأمل الدوام، فتخدعه ثم تصرعه.

وفي سياق المتاع المرتبط بالدنيا تقابلنا صورة ثالثة على لسان مؤمن آل فرعون، أُوثر فيها أسلوب القصر بـ (إنما) ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ غافر: ٣٩ فلما شاع توعد فرعون بقتل موسى عليه السلام جاء هذا الرجل إلى فرعون ناصحا ولم يكن يتهمه فرعون؛ لأنه من آله، فـ" لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله بيّن أنه تعالى قيَّض إنساناً أجنبياً غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة واجتهد في إزالة ذلك الشر." [2] والسياق الكريم لا يزال مترابطا بين مؤمن آل فرعون وفرعون نفسه، إذ تقدم قول المؤمن وما حواه من نصح وإرشاد، وقد حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور. وأول ما يقابلنا في تلك العلاقة القصر بإنما في قصر

---

١ انظر: البحر المحيط، أبو حيان: ٤٦١/٣.

٢ التفسير الكبير: ٥٠٨/٢٧.

الحياة الدنيا على كونها تمتعا يسيرا؛ لسرعة زوالها وفنائها، فالإخلاد إليها أصل الشر، ومنبع الفتن، ومنه يتشعّب جميع ما يؤدي إلى سخط الله، قصر موصوف على صفة، أي لا صفة للدنيا إلا أنها نفع مؤقت، وهو قصر قلب لتنزيل قومه في تهالكهم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة.[1]

والأمر الثاني: هو مقابلتها بالآخرة مقابلة موازنة وتدبّر وتأمل للفرق بين الدارين، فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ ثم ثنّى بتعظيم الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ﴾ غافر: ٣٦ لخلودها ودوام ما فيها، وبيّن أنها الموطن والمستقر، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة والدائم خير من المنقضي، وفي تأخيرها ما يؤكد على أنها هي المقصودة بالذات، وأنها هي التي ينبغي أن تتجه إليها النفوس أصلا. والأمر الثالث: أن هذه الآية جاءت في سياق البيان بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام " أما الإجمال فهو قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: ٣٨ وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي إليه؛ لأن الرشاد نقيض الغي، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي، وأما التفصيل فهو أنه بيَّن حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة، أما حقارة الدنيا فهي قوله: ﴿ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ﴾ غافر: ٣٨ – ٣٩ والمعنى أنه يُستمتع

١ انظر: التحرير والتنوير: ٢٤/١٤٩.

بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة ثم تنقطع وتزول وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام. "[1].

وفي تأكيد حقارة الدنيا يأتينا مشهد آخر، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ التوبة: ٣٨ فهذه الآية وما بعدها من آيات نزلت في غزوة تبوك، وقد حصل لبعض المسلمين تثاقل، ومن بعضهم تخلف، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقب بالوعيد. قال ابن عطية: " هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتابا على تخلّف من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك"[2] خطابا للذين حصل منهم التثاقل بطريقة العتاب على التباطؤ بإجابة داعي الجهاد. وكان من أهداف الآية بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة، فالزمن زمن جهاد واستعداد للقاء العدو، وتباطؤ النفس عن هذا الموطن وتلك الدعوة بسبب التعلق بالدنيا، والركون إليها، وإيثار الدعة والراحة على المشقة والتعب. وقد اقترن سياق الحديث عن الدنيا بالاستفهام المفيد إنكار فعلهم ورضاهم " والاستفهام في ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ﴾ إنكاري توبيخي، إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين. و{مِنْ} في ﴿ مِنَ الآخِرَةِ ﴾ للبدل: أي كيف ترضون بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة. ومثل ذلك لا يرضى به، والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة: منافعهما، فإنهم لما حاولوا التخلف عن الجهاد قد

---

١ التفسير الكبير: ٥١٨/٢٧.

٢ المحرر الوجيز، ابن عطية: ٣٤/٣.

آثروا الراحة في الدنيا على الثواب الحاصل للمجاهدين في الآخرة. واختير فعل {رَضِيتُمْ} دون نحو آثرتم أو فضلتم: مبالغة في الإنكار؛ لأن فعل رضي بكذا يدل على انشراح النفس"[1] وكأن القضية مقارنة بين حياتين، حياة الدنيا وما فيها من خفض العيش ودعته وحياة الآخرة وما فيها من نعيم باق دائم، ثم ينطلق السياق بعد ذلك للوصول إلى الهدف من هذه المقارنة، وهو إبراز حقارة الدنيا وهوانها مقابل الآخرة، وهو هدف يجعل للمؤمنين غاية عظمى وهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا بإدراك أنّ لذات الدنيا خسيسة في أنفسها ومشوبة بالآفات والبليّات، ومنقطعة عن قريب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن كل الآفات، ودائمة أبدية سرمدية، وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل حقير، ثم هي وقفة متأنية لمراجعة العقول طيشها، أفليس قد جعل اللّه لكم عقولا تزنون بها الأمور، وأيها أحق بالإيثار؟ أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار. لقد جاء النظم الكريم بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء لتأكيد هذه الحقيقة، فإنه يفيد قصر متاع الدنيا، ومهما يكن من إحساس وراحة بالنسبة للآخرة فما هو إلا قليل. ولم يذكر متاع الآخرة؛ لكثرته ولأن الإيمان بها في ذاته سعادة غير محصورة، فهي علو في إدراك النعيم المقيم الثابت الدائم. وحرف {في} من قوله: ﴿في

---

١ التحرير والتنوير: ١٠/١٩٨.

الآخرة﴾ دالّ على معنى المقايسة، وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق، والمقيس يوضع بجنب ما يقاس به أي: فما متاع الحياة الدنيا بالمقايسة على الآخرة أو بالنسبة للآخرة إلا قليل.[1] فمتاع الدنيا إذا أقحم في خيرات الآخرة كان قليلا بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة. وقد جاءت هذه الجملة خارجة عن مقتضى الظاهر بالإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير.[2] فإنَّ مقتضى الظاهر (فما متاعها في الآخرة إلا قليل)، غير أنه أظهر ليستحضر في القلب هذا الوصف (الدنيا) ولتكون منه على ذكر دائم، فإذا ما اقترن به قوله" متاع" ازدادت المفارقة بين الحياتين، فالحياة الدنيا ليست متاعًا صرفا لا يشوبه بلاء بل إن بلاء الدنيا لأضعاف أضعاف متاعها مقدارا وزمانا وآثارًا.

وفي موضع آخر يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه تتعلق ببسط الرزق وتقديره امتحانا للعبد أيشكر أم يكفر؟ ويضيِّق ويقتِّر على من يشاء ابتلاء أيصبر أو يجزع؟ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ الرعد: ٢٦ والمقصود من ذلك بيان أن الغنى والفقر يتمَّان حسب علم الله تعالى امتحاناً وابتلاءً، فلا يدلان على رضا الله ولا على سخطه. ولعل المناسبة تتضح حين نتأمل في الآيات السابقة التي تبرز الوعيد للمشركين، ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الرعد: ٢٥ وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة

---

١ مغني اللبيب، ابن هشام: ١٦٩/١، حاشية الدسوقي: ١٨١/١.

٢ أنظر: محاسن التأويل، القاسمي: ٤١٧/٥.

الدنيا استدراج لهم وإمهال، فالخطاب للكفار الذين انغمسوا في هذه الدنيا بطريق الذم والتسفيه لحالهم " وجيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق؛ لعنجهية نفوسهم فهم فرحوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة...فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة. وهذا المعنى أفاده الاقتصار على ذكر الدنيا في حين ذكر الآخرة أيضاً بقوله: ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾[1] فهذا الأمر لا يوجب الفرح، وكان ختام الآية تذييلا بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء لبيان قيمة تلك الحياة في الحقيقة والواقع، وقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة، قال البيضاوي: " ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ أي: في جنب الآخرة إلا ﴿ مَتَاعٌ ﴾ إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال."[2] والتنكير في (متاع) للتقليل، وفيه تشبيه بليغ للحياة الدنيا بالمتاع في الحقارة والزوال والقلة والنفاد.

وفي سياق آخر يخاطب الله المشركين بقوله: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۝ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ ﴾ القصص: ٦٠- ٦١ فلما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيراً أدمج

---

١ التحرير والتنوير: ١٣/ ١٣٤.

٢ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ١٨٧/٣.

في خلال الرد على قولهم: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ القصص: ٥٧ بقوله: ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ القصص: ٥٧ أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا يحسبوا أن ما هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان. ولا يجعلوا ذلك موازناً لاتباع الهدى وإن كان في اتباع الهدى تفويت ما هم فيه من أرضهم وخيراتها لو سلم ذلك. هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها.[1] وقد تكرر ذكر المتاع في الآيتين في سياقين مختلفين، الأول: الجملة الخبرية الشرطية التي تصف واقع الدنيا، فأي شيء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة، أياماً قلائل، وهي مدة الحياة الفانية. وفيها حضّ من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ولذلك قوبلت بما هو خير وأبقى وأفضل وأدوم." وقد تفرع عن هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على سبيل المخاطبة يبين عدم أهليتهم للعقل؛ لأنهم لم يستعملوه فيما يصلح حالهم، فكان هذا الاستفهام محرّكا لضمائرهم بالتفكر والتأمل ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي خير من الفاني، يعني أن من لا يرجح الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل "[2] والثاني: أسلوب الاستفهام الإنكاري في الآية الثانية عن طريق المقارنة والممايزة، وكأن التنبيه على

---

١ التحرير والتنوير: ١٥٣/٢٠.

٢ اللباب، ابن عادل الدمشقي: ٢٧٨/١٥.

استخدام العقل في قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ القصص: ٦٠ مؤذن بالتنبيه على الموازنة اللاحقة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة " ثم إنه تعالى أكّد هذا الترجيح من وجه آخر، وهو أنا لو قدّرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا، فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة؟ فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها؟ وهذا هو المراد بقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ ﴾القصص: ٦١ فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا، ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب..."[١] وأُورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام؛ ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح، فالاستفهام مستعمل في إنكار المشابهة والمماثلة التي أفادها "كاف" التشبيه، والمعنى أن الفريقين ليسوا سواء، إذ لا يستوي أهل نعيم عاجل زائل وأهل نعيم آجل خالد. وهنا يحسن أن نذكر السر من ذكر الواو في صدر الآية ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ القصص: ٦٠ وهو ما أشار إليه الكرماني بقوله: " قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم القصص: ٦ بالواو وفي الشورى: ﴿فمَا أُوتِيتُم ﴾ الشورى: ٣٦ بالفاء؛ لأنه لم يتعلق في هذه السورة بما قبله كبير تعلق فاقتصر على الواو لعطف جملة على جملة وتعلق في الشورى بما قبلها أشدّ تعلق؛ لأنه عقب ما لهم من المخافة بما أوتوا من الأمنة والفاء حرف للتعقيب".[٢] فالحديث قبل آية القصص

---

١ التفسير الكبير: ٨/٩.

٢ البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني: ١٤٦.

حديث عن القرى المهلكة وبيان أشراط هلاكها وسببه ؛ استقصاء للإعذار لمشركي العرب، ثم أردفه بالحديث عن كيفية التعامل مع الحياة الدنيا، وأما في الشورى فإن ربط الكلام بالفاء يوحي بتعلّق الجملة بما قبلها وتفرعها عن جملة ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾الشورى: ٢٧ حيث ذكّروا بأن ما أوتوه من رزق هو عرض زائل، وأن الخير في الثواب الذي ادخره الله للمؤمنين. وأمر آخر يتعلق بزيادة ﴿وَزِينَتُهَا ﴾دون الآية الأخرى أشار إليه الكرماني بقوله: " قوله: وفي الشورى: ﴿ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الشورى: ٣٦ فحسب ؛ لأن في هذه السورة ذكر جميع ما بسط من الرزق وأعراض الدنيا كلها مستوعبة بهذين اللفظين، فالمتاع ما لا غنى عنه في الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح والزينة ما يتجمل به الإنسان وقد يستغنى عنه كالثياب الفاخرة والمراكب الرائقة والدور المجصّصة والأطعمة الملبقة. وأما في الشورى فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو مطلوبهم في تلك الحالة من النجاة والأمن في الحياة فلم يحتج إلى ذكر الزينة. "[1]

المطلب الثاني: ثواب الدنيا:

ارتبطت لفظة الثواب بالدنيا مرة وبالآخرة مرة مؤدية دورها في إبراز المعنى المراد، ومحققة الهدف من مجيئها في السياق لإبراز المفاضلة بين توجّه المقاصد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٥ فقد نزلت هذه الآية في الذين تركوا مركزهم يوم أحد ؛ طلبا للغنيمة، قيل : أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير

١ البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١٤٦.

حتى قتلوا، وهذه الآية - وإن وردت في الجهاد خاصة- عامة في جميع الأعمال؛ لأن المؤثر في جلب الثواب والعقاب هو القصد والدواعي، لا ظواهر الأعمال. والمقصود أن من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدّره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، ولهذا قال ههنا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.[1]

كما أنها تحمل ذمّا للذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، قال أبو حيّان: "هذا تعريض بالذين رغبوا في الغنائم يوم أحد واشتغلوا بها، والذين ثبتوا على القتال فيه ولم يشغلهم شيء عن نصرة الدين".[2] وإذا كان هذا تعريضا بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بمن تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا، فنتج عن ذلك هزيمة المسلمين في غزوة أحد، فإنه يحمل مدحا وثناء للذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة، فتضمنت هذه الآية تحريض المؤمنين على القتال، وتحذيرهم من الجبن والفرار، كما تضمنت دعوة المؤمنين إلى الزهد في متع الحياة الدنيا، وإلى أن يجعلوا مقصدهم الأكبر في تحصيل ما ينفعهم في آخرتهم، فإن هذا هو المقصد الأسمى، والمطلب الأعلى. وبقي أن نلفت الذهن إلى لطيفة أشار إليها الفخر الرازي في دلالة (من) في قوله: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ على التبعيض وأثر ذلك على المعنى، وفي تمييز

---

١ انظر: تفسير ابن كثير: ٢/١٣٠.

٢ البحر المحيط: ٣/٣٦٦- ٣٦٧.

عمل الفريقين فيقول: " ذكر لفظة (من) الدالة على التبعيض فقال في الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها﴾ آل عمران: ولم يذكر كلمة (من)- يقصد قوله: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾آل عمران: ١٤٨- والفرق أن الذين يريدون ثواب الآخرة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة، وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والقصور وهو المراد من قوله: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ آل عمران: ١٤٧ ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم وهو المراد بقوله: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٧ فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال فلا جرم أولئك فازوا ببعض الثواب وهؤلاء فازوا بالكل، وأيضا أولئك أرادوا الثواب وهؤلاء ما أرادوا الثواب وإنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء أعطوا ليعلم أن كل من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله."[١] ثم تأمل أسلوب الالتفات في التعبير بنون العظمة ﴿نُؤْتِهِ مِنْها ﴾ بالخروج من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة للتأكيد على الأجر المترتب على الإرادة، كل بحسب إرادته ومقصده، وفي قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ تذييل جميل مقرر لمضمون ما قبله، ووعد من عطاء الله لمن شكره على نعمه وثبت على شرعه.

١ التفسير الكبير: ٣٨٢/٩.

المطلب الثالث: حرث الدنيا:

في جانب آخر من مظاهر لطفه سبحانه في أن يكل الإنسان إلى توجّهه ومراده، وفيه تخيير بين الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى: ٢٠ ويرى ابن عاشور قوة الصلة بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ﴾ الشورى: ١٨ لما تضمنته من وجود فريقين: فريق المؤمنين أكبر همهم حياة الآخرة، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدنيا، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة الله الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم عبيده وكونهم بمحل لطف منه، فكانت جملة: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ الشورى: ١٩ تمهيدا لهذه الجملة، وكانت هاته الجملة تفصيلا لحظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدم الإيمان بها. ولأجل هذا الاتصال بينها وبين جملة ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ ترك عطفها عليها، وترك عطف توطئتها كذلك، ولأجل الاتصال بينها وبين جملة ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ اتصال المقصود بالتوطئة ترك عطفها على جملة ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾.[1] والحرث في الأصل مصدر بمعنى إلقاء البذور في الأرض، لتنبت ما ينفع الناس من زرع. والمراد به: ثمرات الأعمال ونتائجها، تشبيها لها بثمرات البذور، ذكر أبو السعود: " الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض. يطلق على الزرع الحاصل منه. ويستعمل في ثمرات الأعمال، ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية

---

١ التحرير والتنوير: ٢٥/٧٣- ٧٤.

على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نزد له في حرثه نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها، ومن كان يريد بأعماله حرث الدنيا، وهو متاعها وطيباتها نؤته منها، أي: شيئا منها حسبما قسمنا له لا ما يريده ويبتغيه وما له في الآخرة من نصيب إذ كانت همته مقصورة على الدنيا."[1] ولما كان الحرث في الأرض أصلا من أصول المكاسب استعير لكل مكسب أريد به النماء والفائدة. قال البيضاوي: " شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل؛ ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة."[2] ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده، من زكاء أعماله، وفوزه في المآب؛ لأن ما يُعطى في الآخرة يستحقر أن يُذكر معه غيره من الدنيا.[3] وفعل ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾يحتمل معنيين: أن تكون الزيادة في ثواب العمل، كقوله: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ البقرة: ٢٧٦ وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١...وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث مجاز عقلي، علقت الزيادة بالحرث وحقها أن تعلق بسببه وهو الثواب، فالمعنى على حذف مضاف. وأن تكون الزيادة في العمل، أي نقدر له العون على الازدياد من الأعمال الصالحة ونيسر له ذلك فيزداد

---

١ إرشاد العقل السليم: ٢٩/٨.

٢ أنوار التنزيل: ٧٩/٥.

٣ انظر: الكشاف: ٢١٨/٤.

من الصالحات. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث حقيقة.[1] وفي الآية التفات من الغيبة في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ إلى التكلم بأسلوب العظمة ﴿نَزِدْ لَهُ ﴾تأكيدا على نفاد أمر الله سبحانه في ذلك، وأنه لا يستطاع دفاعه ولا ممانعته أو نزاعه، وفي تقديم مريد حرث الآخرة على مريد حرث الدنيا ما يدل على التفضيل له.

المطلب الرابع: حب الدنيا:

يتنوع التعبير القرآني عن حب الدنيا وطلبها، فمرة يكون التعبير عن حب الدنيا بإرادة العاجلة كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ الإسراء: ١٨ وقد جاء السياق بأسلوب الشرط ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ وجاء جوابه مشاكلا لحروف العاجلة ومشتقا من مادتها اللغوية (العاجلة- عجّلنا) وفيها يبيّن سبحانه مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة، والمراد بالعاجلة: دار الدنيا، وهي صفة لموصوف محذوف أي: الدار العاجلة التي ينتهي كل شيء فيها بسرعة وعجلة، أي: من كان يريد بقوله وعمله وسعيه زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة عجلنا لذلك الإنسان في هذه الدنيا ﴿مَا نَشَاءُ ﴾تعجيله له من زينتها ومتعها. ولكن هذا التعجيل مقيّد بقيدين، أحدهما: تقييد المقدار المعجل بمشيئة الله، والآخر: تقييد الشخص المعجل له بإرادة الله، كما قال الزمخشري: " فقيد الأمر

---

١ انظر: التحرير والتنوير: ٢٥/٧٥.

تقييدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثاني: تقييد المعجل له بإرادته."[1]
وفي هذا السياق أيضا جاء وصف الدنيا في مقابلة وصف الآخرة تنفيرا وترغيبا، والاختلاف بين جملة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ﴾ وجملة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ بجعل الفعل مضارعاً في الأولى وماضياً في الثانية للإيماء إلى أن إرادة الناس العاجلة متكررة متجددة. وفيه تنبيه على أن أمور العاجلة متقضية زائلة، وجعل فعل إرادة الآخرة، ماضياً لدلالة المضي على الرسوخ تنبيهاً على أن خير الآخرة أولى بالإرادة، ولذلك جردت الجملة من (كان) ومن المضارع، وما شرط في ذلك إلا أن يسعى للآخرة سعيها وأن يكون مؤمناً.[2]

ومرة يكون التعبير عن الدنيا بطلب زينة الدنيا كما في قول الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هود: ١٥- ١٦ وهذه الآية تعالج حال من عمل عملا يريد به الدنيا، وتتجلى المناسبة لورودها بتأمل ما قبلها من آيات، فالله سبحانه لما أقام الحجة على المكذبين بعجزهم عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن مفتريات حيث ادعوا أن القرآن مفترى وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد افتراه ولم يبق إلا أن يختار المرء أحد الطريقين طريق الدنيا أو الآخرة الجنة أو النار فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وهو اعتراض المقصود منه زيادة بيان لأسباب مكابرتهم وبعدهم عن الإيمان، وتنبيه

---

١ الكشاف: ٦٥٥/٢.

٢ التحرير والتنوير: ٦٠/١٥.

المسلمين بأن لا يغتروا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضا أن الكفر يوجب تعجيل العذاب فأوقظوا من هذا التوهم، وفعل الشرط في المقام الخطابي يفيد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل، فالمعنى من كان يريد الحياة الدنيا فقط بقرينة قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ إذ حصر أمرهم في استحقاق النار وهو معنى الخلود.[1] والتعبير بكان في قوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم، بدون تطلع إلى خير الآخرة. وختمت الآية بالتذييل في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾لقصد تأكيد ما سبقه، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده في دنياهم. وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك؛ بناء للأمر على ظاهر الحال، ومحافظة على صور الأعمال، ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا[2].

وفي غزوة أحد خالف بعض الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فبيّن الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾آل عمران: ١٥٢ فجاءت هذه الآية بعد تلك الغزوة إذ لما

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٣.

٢ إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٩٤.

رجع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى المدينة بعد غزوة أحد قال أناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى النّصر؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.[1] وفيها يقول للمؤمنين: إنه صدقكم ما وعدكم به من نصر، فكنتم تقتلونهم قتلا ذريعا بإذن الله، وسلطكم عليهم، حتى إذا أصابكم الضّعف والفشل، وعصيتم أمر الرسول، وتنازعتم في الأمر، (وهو ما وقع للرماة الذين أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلزموا مواقعهم فَتَخَلَّوا عنها)، وكان الله قد أراكم الظفر، وهو ما تحبونه، فكان منكم من يريد الدنيا، ويطمع في المَغنم، حين رأوا هزيمة المُشركين، فتركوا مواقعهم على الجبل، ومنكم من كان يريد الآخرة في قتاله المشركين لا يلتفت إلى المَغنم، فثبت مكانه وقاتل، ثم أدال الله المشركين عليكم، وجعل لهم الغلبة عليكم ليختبركم، ويمتحن ثباتكم على الإيمان. وقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾تفصيل لـ ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ وتبيين لـ ﴿وَعَصَيْتُم﴾ وتخصيص له بأنّ العاصين بعض المخاطبين المتنازعين، إذ الذين أرادوا الآخرة ليسوا بعاصين، ولذلك أخّرت هاته الجملة إلى بعد الفعلين، وكان مقتضى الظاهر أن يعقب بها قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ وفي هذا الموضع للجملة ما أغنى عن ذكر ثلاث جمل، وهذا من أبدع وجوه الإعجاز، والقرينة واضحة[2].

---

١ أسباب نزول القرآن، الواحدي: ١٢٦.

٢ التحرير والتنوير: ٤/ ١٢٩.

المطلب الخامس: الدنيا والعرض:

ارتبطت مادة عرض بالحياة الدنيا لبيان قيمتها، وأنها شيء زائل، يعرض عرضا فلا يدوم، وكان مما استخدم العرض فيه ذكر أحوال قد يتساهل فيها، وتعرض فيها شبه، فجاء قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ النساء: ٩٤ والمناسبة ما رواه البخاري، عن ابن عباس، قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك هذه الآية؛[1] استقصاء للتحذير من هذا النوع من القتل وأن الباعث على قتل من أظهر الإسلام منهي عنه، ولو كان قصد القاتل الحرص على تحقق أن وصف الإيمان ثابت للمقتول، فإن هذا التحقق غير مراد للشريعة، وقد ناطت صفة الإسلام بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله أو بتحية الإسلام وهي السلام عليكم، وزاد في التوبيخ قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾أي: كنتم كفارا فدخلتم الإسلام بكلمة الإسلام، فلو أن أحدا أبى أن يصدقكم في إسلامكم أكان يرضيكم ذلك؟ وهذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالا كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه. وإذا كانت الجملة حالية من فاعل ﴿وَلاَ تَقُولُوا﴾على أن النهي راجع

---

١ صحيح البخاري، باب: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا)، حديث رقم: ٤٥٩١، ٦/٤٧.

إلى القيد والمقيّد جميعا كما قال أبو السعود: " حال من فاعل ﴿وَلاَ تَقُولُوا﴾ منبئ عما يحملهم على العجلة وترك التأني لكن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما في قولك: لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا أي: لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع النفاذ."[1] والمقصود بهذه الجملة الكريمة توبيخهم على حرصهم على متاع الدنيا بطريقة لا تتناسب مع الإيمان الكامل، ومع الهدف الذي خرجوا من أجله، وهو إعلاء كلمة الله تعالى والدعوة إلى دين الإسلام. والتعبير بـ ﴿تَبْتَغُونَ﴾والابتغاء: الطلب الشديد والرغبة الملحة، يفيد وقوع ذلك منهم عن قصد وإرادة، وتسمية عملهم الذي أقدموا عليه عرضا، وعرض الحياة الدنيا: جميع متاعها وأموالها؛ لأنه مهما كثر فهو زائل غير دائم، وعارض غير باق، فنبّه تعالى بتسميته عرضاً على كونه سريع الفناء قريب الانقضاء، وبقوله: ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ على أن ثواب الله موصوف بالدوام والبقاء.

وفي موقف آخر جاءت لفظة العرض في مقام الحرص على الحياة الدنيا دون الآخرة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٧ والسياق في أحداث غزوة بدر، وذلك أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ رضي الله عنهم رغبوا في مفاداة الأسرى بالمال للظروف المعيشية القاسية التي كانوا يعيشونها، وكانت رغبتهم في الفداء بدون علم من الله تعالى بإحلالها أو تحريمها، أما

---

١ إرشاد العقل السليم: ٢١٨/٢.

عمر فكان لا يعثر على أسير إلا قتله، وأما سعد فقد قال: الإثخان في القتال أولى من استبقاء الرجال. ولما تم الفداء نزلت هذه الآية الكريمة تعاتبهم أشد العتاب.[1] قال ابن جزي: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ عتاب لمن رغب في فداء الأسرى"[2] فهذا من عتابه تعالى لهم، إذ ما فدوا الأسرى إلا لأنهم يريدون حطام الدنيا وهو المال، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي فشتان ما بين مرادكم ومراد ربكم لكم تريدون العرض الفاني والله يريد لكم النعيم الباقي، فجاءت المساومة على الدنيا الزائلة في مقابل الآخرة الباقية. وجملة: ﴿تُرِيدُونَ﴾ إلى آخرها واقعة موقع العلّة للنهي الذي تضمّنته آية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ فلذلك فصلت؛ لأنّ العلّة بمنزلة الجملة المبيِّنة. ومما يلفت النظر أنه ذُكر مع {الدنيا} المضافُ ولم يحذف؛ لأنّ في ذكره إشعاراً بعروضه وسرعة زواله. وإنّما أحبّ الله نفع الآخرة؛ لأنّه نفع خالد، ولأنّه أثر الأعمال النافعة للدين الحقّ، وصلاح الفرد والجماعة.[3] وعُلّق فعل الإرادة بذات الآخرة، والمقصود نفعها بقرينة قوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾

فهو حذف مضاف للإيجاز، وممّا يحسنه أنّ الآخرة المرادة للمؤمن لا يخالط نفعها ضرّ ولا مشقّة، بخلاف نفع الدنيا. وعرض الدنيا كناية عن الفداء الذي أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم.

---

١ أسباب نزول القرآن: ٢٤٠.

٢ التسهيل لعلوم التنزيل: ١/٣٢٩.

٣ انظر: التحرير والتنوير: ١٠/٧٦.

المطلب السادس: الدنيا والغائية:

مفهوم الغاية وعلاقته بالدنيا ارتبط كثيرا بمنكري البعث الذين يجعلون من هذه الحياة الدنيا غاية وجودهم، ومنتهى حياتهم ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾الأنعام: ٢٩ وقد وردت هذه الآية على لسان منكري البعث، وأبرزت شيئا من مفترياتهم الدنيوية، وهي أن الحياة واحدة، هي تلك التي يعيشونها في الدنيا، ولا حياة غيرها، فأبرز النظم الكريم فريتهم بأسلوب القصر المؤدي لتحقّق ما يدّعون عن طريق النفي والاستثناء، والمعنى أن لا حياة لنا إلا حياتنا الدنيا أي انحصر جنس حياتنا في حياتنا الدنيا فلا حياة لنا غيرها فبطلت حياة بعد الموت، فوضع (هي) موضع الحياة لدلالة الخبر عليها " ولم يكتفوا بمجرد الإخبار بذلك حتى أبرزوها محصورةً في نفي وإثباتٍ، و " هي " ضمير مُبهم يفسره خبره، أي : ولا نعلم ما يراد به إلا بذكر خبره، وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها لفظا ورتبة".[1] ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إلى الله، فالآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أي حياة سوى الحياة التي يعيشونها، وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفياً مؤكداً بالباء وبالجملة الاسمية قال ابن عاشور: " وجملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ نفي للبعث وهو يستلزم تأكيد نفي الحياة غير حياة الدنيا؛ لأن البعث لا يكون إلا مع حياة. وإنما عطفت ولم تفصل فتكون مؤكدة للجملة قبلها لأن قصدهم إبطال قول الرسول صلى الله عليه وسلم

---

١ اللباب: ٩٩/٨.

أنهم يحيون حياة ثانية، وقوله تارة أنهم مبعوثون بعد الموت، فقصدوا إبطال كل باستقلاله."[1]

وفي سورة المؤمنون حكى عنهم الباري سبحانه تلك المقولة ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون: ٣٧ وزيد في هذه الآية قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾أي يموت بعض ويولد بعض، ينقرض قرن ويأتي قرن آخر. فجملة: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مبيّنة لجملة ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾وللدلالة على هذا التطور عبّر بالفعل المضارع، أي تتجدد فينا الحياة والموت. فالمعنى: نموت ونحيا في هذه الحياة الدنيا وليس ثمة حياة أخرى.[2] وإنما قدم ﴿نَمُوتُ﴾ في الذكر على ﴿وَنَحْيَا﴾ في البيان مع أن المبيّن قولهم ﴿هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبيَّن فيقال: نَحيَا ونموت؛ للاهتمام بالموت في هذا المقام؛ لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده. ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين: ﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ﴾ ثم بين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وحصلت الفاصلة تبعاً فقُدّم ﴿نَمُوتُ﴾ لتتأتى الفاصلة بلفظ ﴿وَنَحْيَا﴾ مع لفظ ﴿الدُّنْيَا﴾وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز.

وفي مقام ثالث زاد تكذيبهم في إنكار الآخرة وإنكار الخالق عز وجل بقولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ الجاثية: ٢٤ وأرادوا من هذه الزيادة التي سجلوها بأسلوب الحصر تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا

---

١ التحرير والتنوير: ١٨٧/٧.

٢ أنظر: التحرير والتنوير: ٣٦١/٢٥.

العالم المعبر عنه عندهم بالدهر ؛ إنكارًا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم، وما لهؤلاء المشركين من علم بذلك، ما هم إلا يتكلمون بالظن والوهم والخيال. قال ابن عطية: " أي طول الزمان هو المهلك ؛ لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها فنفى الله تعالى علمهم بهذا وأعلم انها ظنون وتخرّص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى"[1] وبالتأمل نجد أن هذه الآيات قد اتبعت أسلوب الترقي فيما بينها لسرد مقالات الدهريين ؛ تنبيها على عظمها وخطرها وشدتها، وزيادة في التمادي تحديّا وإنكارا، وقد تدرّج القرآن الكريم معهم بسرد مفترياتهم وتفنيدها، وبيان أنها واهية لا قيمة لها ولا صحة لعرضها. ومع هذا الترقّي في مقالاتهم إلا أن المقام الذي وردت فيه هذه الآيات ذو مناسبة كبيرة لما ورد من مقالاتهم، وبيان ذلك كما يلي: فآية الأنعام لم يرد فيما تقدّمها زيادة على ما أُخبروا به من حالهم في إنكارهم البعث، فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام: ٢٧ فكأن قد قيل لهم: إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأخروية، ولم يرد أثناء هذا ما يستدعي زائدا. أما آية المؤمنون، فترتب الوارد فيها من قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾على ما تقدّم من دعاء الرسل إياهم، وقد ورد ما يدل على اهتمامهم الدنيوي بهذه الحياة المنبئ عن عتوّهم وقولهم في المرسل إليهم: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ المؤمنون: ٣٣

---

١ المحرر الوجيز: ٥/٨٧.

فلما طال الكلام هنا بما أغروا به سفهاءهم نسب هذا الطول ما زيد هنا من قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وشأن ما يرد في الكتاب العزيز مما ظاهره التكرار زيادة فائدة، أو تتميم معنى، أو لبناء غيره من الكلام عليه، حتى لا يكون تكرارا عند من وفّق لاعتباره. وأما آية الجاثية، فهي المفصحة بمرتكبهم الشنيع، من إنكارهم فاعلا مختارا، حين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخروي، إنكارهم توقّف الموت على آجال محدودة للخلائق، ووقوعه بإرادة وتقدير من الموجد سبحانه، ثم أتبعوا شنيع مرتكبهم هذا بقولهم للرسل- تحكيما لإنكارهم للبعث: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾الجاثية: ٢٥ أي: إن كنتم صادقين أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. وبما ورد في هذه الزيادة حصل التعريف بجملة مقالهم الشنيع.[١]

المطلب السابع: الدنيا واللعب واللهو:

نستفتح السياق بقوله تعالى: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾الأنعام: ٣٢ ففي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه أن هذه الحياة الدنيا هي دار لعب ولهو، وهما أمران باطلان محدودا المدة والعدة وبالتأكيد يخلّفان الحسرة والندامة في الدار الآخرة. وتبين الآية أن الدار الآخرة بما فيها من نعيم مقيم ولذة دائمة لا تنتهي ورضوان من الله سبحانه، وهو أعظم اللذات عند المؤمن وهي ثواب المتقين في هذه الحياة المبتعدين عن اللهو واللعب الباطل في هذه الدنيا والمتمسكين بأهداب الإيمان

---

١ البرهان في متشابه القرآن: ٦٢ ملاك التأويل: ١/٣١٢- ٣١٣ كشف المعاني في المتشابه من المثاني: ١٦٠.

والعمل بالشريعة بأقصى ما يستطيعون. وقد سيقت الآية بأسلوب القصر بالنفي والاستثناء، وقوبلت بنعيم الآخرة مفاضلة لذلك النعيم الباقي الدائم تحذيرا وتنفيرا من التشبّث بها وترغيبا في التعلّق بالآخرة ونعيمها. وهذا يقودنا إلى أن نتعرف على مناسبة وصف الدنيا والآخرة في هذا السياق، فلمّا جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرّطوا ناسب أن يُذكّر الناس بأنّ الحياة الدنيا زائلة وأنّ عليهم أن يستعدّوا للحياة الآخرة، فتكون الجملة اعتراضا بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة، فإنَّه لما حكى قولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾الأنعام: ٣١ علم السامع أنَّهم فرّطوا في الأمور النافعة لهم في الآخرة بسبب الانهماك في زخارف الدنيا، فذُيّل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفاً بقيمة زخارف الدنيا وتبشيراً لهم بأنّ الآخرة هي دار الخير للمؤمنين، فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة. والمناسبة هي التضادّ. وأيضاً في هذا نداء على سخافة عقولهم إذ غرّتهم في الدنيا فسوّل لهم الاستخفاف بدعوة الله إلى الحق. فيجعل قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾خطاباً مستأنفاً للمؤمنين تحذيراً لهم من أن تغرّهم زخارف الدنيا فتلهيهم عن العمل للآخرة.[1] فهناك رابطة وثيقة بين هذه الآية وما سبقها من آيات تتناول معتقد المشركين ونظرتهم الغائية للحياة الدنيا، تتمثل في تصحيح تلك النظرة الخاطئة القاصرة. وقد أفادت جملة ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قصر الحياة على اللعب واللهو، وهو قصر موصوف على صفة، والتعريف فيها للجنس، واختيار تشبيهها باللعب واللهو لبيان حالها الحقيقي، فاللعب يعطينا معنى

١ التحرير والتنوير: ١٩٣/٧.

الخفة والسرعة والطيش، وإذا كان من صفات اللاعب تلك الصفات فإن الدنيا كذلك، واللهو يعطينا معنى الاستمتاع والتلذذ وتقديم المشتهيات وصرف النفس عن الجد إلى الهزل، وإذا كان من حال اللاهي ذلك فإن الدنيا لا تبرح هذا المعنى. فاللهو واللعب اشتغال بما لا غنى به ولا منفعة، كذلك هي الدنيا بخلاف الاشتغال بأعمال الآخرة فإنها التي تعقب المنافع والخيرات. وقد صرح الثعالبي بتلك الرابطة بين الحياة الدنيا واللعب واللهو، فقال" والمعنى أنها إذ كانت فانية لا طائل لها أشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا تقضى "[1] كما أن الفخر الرازي عقد أوجه التشابه وخيوط الصلة بينها، فقال: " واعلم أن تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه، الأول: أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال ومدة هذه الحياة كذلك. الثاني: أن اللعب واللهو لا بدّ وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره ولذات الدنيا كذلك. الثالث: أن اللعب واللهو إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور لا يبقى اللعب واللهو أصلاً وكذلك اللهو واللعب فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهال المغفلين أما العقلاء والحصفاء فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور وأما الحكماء المحققون فإنهم يعلمون أن كل هذه الخيرات غرور وليس لها في نفس الأمر حقيقة معتبرة. الرابع: أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات

---

١ الجواهر الحسان: ٤٥٨/٢.

والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لهما حقيقة معتبرة."[1] وقد اختار كثير من المفسرين أن يقرّبوا صورة الحياة الدنيا وتشبيهها باللعب واللهو، لسرعة زوالها عن أهلها، وموتهم عنها بصورة لعب الصبيان ساعة، ثم يفترقون متعبين بلا فائدة.[2] ثم إن اللهو واللعب جاءا مصدرين للمبالغة في بيان حقيقة الحياة الدنيا، بأن جعل الحياة اللعب واللهو نفسه؛ ولذلك عقّب بقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فعلم منه أنّ أعمال المتّقين في الدنيا هي ضدّ اللعب واللهو؛ لأنّهم جعلت لهم دار أخرى هي خير، وقد علم أنّ الفوز فيها لا يكون إلاّ بعمل في الدنيا فأنتج أنّ عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب وأنّ حياة غيرهم هي المقصورة على اللهو واللعب.

وورد هذا المعنى في سورة العنكبوت، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا هَـذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت: ٦٤ لكن باختلاف يسير في ذكر اسم الإشارة والنصّ عليه وتقديم اللهو على اللعب في العنكبوت، بأنه لما كان هذا الكلام مسوقا للرد على الكفرة فيما يزعمونه من إنكار الآخرة وليس في اعتقادهم لجهلهم إلا ما عجّل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية قدم اللعب الدال على ذلك وتّم باللهو، أو لما طلبوا الفرح بها وكان مطمح نظرهم وصرف الهمّ لازم وتابع له قدَّم ما قدَّم، أو لما أقبلوا على الباطل في أكثر أقوالهم وأفعالهم قدّم ما يدل على ذلك، أو قدّم اللعب على اللهو رعاية للترتيب الخارجي وأما في

---

١ التفسير الكبير: ٥١٥/٤.

٢ ينظر: الكشاف: ١٩٥/٣ أنوار التنزيل: ١٤١/٤ إرشاد العقل السليم: ٤٧/٧.

العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة وتحقيرها بالنسبة إليها ؛ ولذا ذكر اسم الإشارة المشعر بالتحقير وعقَّب ذلك بقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾...[1] وفي سورة العنكبوت تأكيد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ بإنَّ واسمية الجملة ولام الابتداء على الحياة التي يجب أن يُعمل لها لبقائها وخيريتها، ولأنهم كانوا ينكرون الحياة بعد الموت أخبر عنها على سبيل التأكيد أن لا حياة غيرها. ولما أشير في هذه الآية إلى الحياة الآخرة في قوله : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾العنكبوت : ٦٣ زاده تصريحا بأن الحياة الآخرة هي الحياة الحق، فصيغ لها وزن الفَعَلان الذي هو صيغة تنبئ عن معنى التحرك ؛ توضيحا لمعنى كمال الحياة بقدر المتعارف، فإن التحرك والاضطراب أمارة على قوة الحيوية في الشيء مثل الغليان واللهبان. وهم قد جهلوا الحياة الآخرة من أصلها فلذلك قال : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾أو هي في ذاتها حياة للمبالغة في كون الحياة فيها، وحركته مشعرة بما في الحياة من مطلق الحركة والاضطراب، فلا انقضاء لشيء من لعبها ولا لهواها الذي لا يوافق ما في الدنيا إلا في الصورة فقط لا في المعنى.[2]

ولتقرير حقيقة الدنيا في النفوس جيء بإنما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ محمد : ٣٦ بقصرها على اللعب واللهو قصر موصوف على صفة ؛ تحقيرا

---

١ درة التنزيل وغرة التأويل : ١/٥١٨- ٥١٩ روح المعاني : ٧/١٣٤.

٢ ينظر : نظم الدرر ٥/١٥ نظم الدرر : إرشاد العقل السليم : ٧/٤٧ التحرير والتنوير : ٢١/٣١.

لأمرها، أي فلا تهنوا في الجهاد بسببها، وجاء الإخبار عن الحياة بأنها لعب ولهو على معنى التشبيه البليغ، بأن شُبهت الحياة الدنيا باللعب واللهو في عدم ترتب الفائدة عليها؛ لأنها فانية منقضية والآخرة هي دار القرار .وهذا تحذير من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدّو ويدعو إلى مسالمته؛ فإن ذلك يغري العدّو بهم. قال شيخ زاده : " بيَّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعا من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو واللعب في سرعة زوالها، وفي أنه لا يترتب عليها بعد زوالها شيء من ثواب الآخرة التي فيها الحياة الباقية بخلاف الإيمان والاتقاء عن العصيان"[1]

ثم يترقّى النظم الكريم في سياق آخر في ذكر حقيقة الدنيا، وذلك ما ورد في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾الحديد: ٢٠ والسياق الكريم في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يزيد كمالهم وسعادتهم في الحياتين، بذكر حقيقة الدنيا وأوصافها، وهي أمور قليلة النفع، سريعة الزوال، فاللهو كاللعب لا يخلفان منفعة تعود على اللاهي اللاعب، والزينة سرعان ما تتحول وتتغير وتزول، والتفاخر بين المتفاخرين مجرد كلام ما وراءه طائل أبداً، والتكاثر لا ينتهي إلى حد ولا يجمع إلا بالشقاء والنصب والتعب ثم

---

١ حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: ٦٠٠/٧.

يذهب أو يذهب عنه فلا بقاء له ولا دوام وله تبعات لا ينجو منها صاحبها إلا برحمة من الله. والحاصل: أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها. قال أبو السعود: " بعدما بيَّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الحياة الدنيا التي اطمأن بها الفريق الثاني وأشير إلى أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال..."[1] وافتتح الكلام بـ ﴿اعْلَمُوا﴾ إيذانا بأن ما سيلقى بعده جدير بتوجه الذهن كليّة إليه، وتنبيها على رعاية العمل به. وقد جاء الخبر المفاد من الأمر (اعلموا) بأسلوب القصر عن طريق (أنما)"و (أَنَّمَا) المفتوحة الهمزة أخت (إنما) المكسورة الهمزة في إفادة الحصر، وحصر الحياة الدنيا في الأخبار الجارية عليها هو قصر أحوال الناس في الحياة على هذه الأمور الستة باعتبار غالب الناس، فهو قصر ادعائي بالنظر إلى ما تنصرف إليه همم غالب الناس من شؤون الحياة الدنيا، والتي إن سلم بعضهم من بعضها لا يخلو من ملابسة بعض آخر إلا الذين عصمهم الله تعالى، فجعل أعمالهم في الحياة كلها لوجه الله، وإلا فإن الحياة قد يكون فيها أعمال التقى والمنافع والإحسان والتأييد للحق وتعليم الفضائل وتشريع القوانين ."[2]. وقد صيغتا التفاخر والتكاثر على زنة التفاعل للمبالغة في حصول هذين الفعلين من الناس وكان ذكر حال الحياة الدنيا مقتضياً ذكر

---

١ إرشاد العقل السليم: ٢١٠/٨. وسأتناول تحليل التمثيل في الآية في مبحث قادم إن شاء الله.

٢ التحرير والتنوير: ٤٠١/٢٧.

مقابله على عادة القرآن في تشفيع الترهيب بالترغيب، من باب التحذير والتحريض بقرينة السياق، والتنبيه على حقارة أمر الدنيا تزهيدا فيها وتنفيرا عن العكوف عليها ثم الإشارة إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم.

المطلب الثامن: الدنيا والغرور:

في جانب الغرور وصفت الدنيا بفعلها للغرور والخداع، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الأنعام: ٧٠ بإلهائهم بزخرفها عن النظر والتفكر، فوضعت في كفة المخادع الغارّ لغيره المطمع لهم بما لا يتحصّل، حتى ظنوا أن لا حياة بعدها وأن نعيمها دائم لهم بطرا منهم، فخدعتهم وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق. وهنا يتجلى لنا جمال الاستعارة في بثّ الحركة في المعنويات، ليبرز الأثر والعبرة من الموقف المطروح، وتصوير هؤلاء الموصوفين ذمّا لحالهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المغرية وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم خسرا تحذيرا للسامع مثل حالهم. والتعبير بالفعل (غرّ) من الغُرور بضم العين يصور لنا مدى قبولهم للحياة الدنيا واستشرافهم لها قبول المسلّم لها، حيث أشربت قلوبهم حبها والطمع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله و اطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبدا وأن السعادة في لذاتها، ويحتمل أن الفعل من الغَرّ والغَرور بفتح العين من غَرّ الطائر فرخه، أي ملأ بطنه بالأكل، فتكون الدنيا كأنها ملأت أفواههم وأشبعتهم بزخرفها وزينتها وشهواتها، قال ابن عطية: " أي خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى، ويحتمل أن يكون اللفظ

من الغر وهو ملء الفم أي أشبعتهم وأبطرتهم."[1] والسياق يحمل من هذا الذم لهم تحذير السامعين وإرشادهم.

ويتكرر سياق الغرور بالدنيا ويبرز في موقف من مواقف يوم القيامة عظيم، وهو حوار أهل الجنة والنار، فتبرز المسبّبات التي أوقعت أولئك الكفار في النار، ومن جملتها غرورهم بالحياة الدنيا وميلهم إلى لذاتها مما جعل النسيان حليفا لهم في ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾الأعراف: ٥١ فهذا المقطع وصف للكافرين يعرض فيه جرائمهم التي اقتضت حرمانهم وعذابهم ليكون ذلك عظة وعبرة، والغرور هنا معبر عن أثر الحياة الدنيا في نسيانهم الآخرة،" وهو مجاز؛ لأن الحياة لا تغر في الحقيقة، بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا؛ لأن الإنسان يطمع في طول العمر، وحسن العيش، وكثرة المال، وقوة الجاه، فتشتد رغبته في هذه الأشياء، ويصير محجوبا عن طلب الدين غارقا في طلب الدنيا."[2].

وفي موقف الدخول للنار يبرز النظم الكريم سبب دخول أولئك الكفار في قوله: ﴿وَقِيلَ اليَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الجاثية: ٣٤- ٣٥ ويختلف

---

١ المحرر الوجيز: سورة الأعراف: ٢/٤٠٧.

٢ اللباب في علوم الكتاب: ٩/١٣٥.

الأسلوب في الآية عما سبقه من ذكر سبب التغرير بأسلوب الغائب، ولكن في هذه الآية وفي هذا الموقف العصيب كان لا بد من المواجهة والتقرير لهؤلاء الكفار بشناعة عملهم وسبب دخولهم النار، وذلك عن طريق أسلوب الخطاب المباشر الذي يثبت استحقاقهم العذاب، ولا شك أنه أشدّ وأنكى في تجريم أولئك المخاطبين، وتأييسهم من العفو عنهم. أي: إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب؛ لأنكم أتيتم ثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة، وهي الإصرار على إنكار الدين الحق والاستهزاء به، والسخرية والاستغراق في حب الدنيا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وكانت الخاتمة إن حوّل الخطاب عنهم بعد تقريرهم إهانة لهم (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون)، قال الألوسي: " والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلهم من مقام الخطابة إلى غيابة النار."[1] وأسند التغرير إلى الحياة الدنيا على سبيل المجاز العقلي؛ لأنها سبب كبير في ذلك التغرير.

ويتسع الخطاب في سياق رابع ليشمل الناس بالتنبيه على خطر الافتتان بالدنيا في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ لقمان: ٣٣ بالتفريع على ما قبله إبطالا لشبهة منكري البعث في رجوع الناس بعد موتهم، وقد جاء بأسلوب النهي والتأكيد للفعل المنهي عنه ﴿يَغُرَّنَّكُم﴾بنون التوكيد الثقيلة؛ لتأكيد النهي عن

---

١ روح المعاني: ١٣/ ١٦٠.

الاغترار بالدنيا، وهو مضارع يفيد الاستمرار والتجدد، والنهي في الظاهر موجّه للناس، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهى صورة إليها[1]. وإسناد التغرير إلى الحياة الدنيا مجاز عقلي؛ لأن الدنيا ظرف الغرور أو شُبهته، وفاعل التغرير حقيقة هم الذين يُضلونهم بالأقيسة الباطلة فيشبهون[2] عليهم إبطاء الشيء باستحالته، أو لأن الغارَّ للمرء هو نفسه المنخدعة بأحوال الحياة الدنيا فيكون من إسناد الفعل إلى سببه والباعث عليه. فذكرت هنا وسيلة التغرير، وهي الدنيا بملاذها وزخارفها وطول العمر فيها، تحذيرا منها، بأن نعمها دانية ولذاتها فانية، وأن الواجب الزهد فيها، والتفرغ لما يرضي الله من توحيده وطاعته.

المطلب التاسع: الدنيا والزينة:

وردت الزينة معطوفة على الحياة الدنيا في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه بالتخيير بين مفارقتهن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ الأحزاب: ٢٨ وجاء التعبير بأسلوب الشرط وقُيّد بـ (إنْ) الشرطية؛ وذلك أن فعل الشرط مشكوك في وقوعه، أو يترجح عند المتكلم عدم وقوعه، فالميل إلى الدنيا من قبل نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمر نادر من الحريّ ألا يقع.

---

١ انظر: إرشاد العقل السليم: ١٤٣/٧. روح المعاني: ٣٤١/١١.

٢ انظر: التحرير والتنوير: ١٩٥/٢١.

قال ابن كثير: " فاخترن رضي الله عنهنّ وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة." [1]

وجاءت الزينة مصدرا منكرا مضافا إلى الحياة الدنيا في سورة الكهف في موضعين، الأول: في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾الكهف: ٢٨ وهذا الكلام فيه تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.[2] والثاني: في قوله تعالى: ﴿المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾الكهف: ٤٦ وتحقيق مناسبة هذه الآية يجعل القارئ يعود إلى ما قبلها من آيات، ليتبين أثر موقعها في السياق في إفادة الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنها إلى زوال، وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملاً. قال أبو السعود: " بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا...أثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل"[3]

---

١ تفسير القرآن العظيم: ٤٠١/٦.

٢ انظر: التفسير الكبير: ٤٥٦/٢١. التسهيل: ٤٦٤/١. إرشاد العقل السليم: ٢٢٥/٥ التحرير والتنوير: ٣٠٤/١٥.

٣ إرشاد العقل السليم: ٢٢٥/٥.

والمثل هو قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ الكهف: ٤٥ ويوضح الفخر هذا التناسب بقوله: " لما بيّن تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة على الزوال والبوار والفناء بيَّن تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل."[١] وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالا ونفعا، وفى البنين قوة ودفعا، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن مع قرينة الصفة للمال والبنين؛ لان المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقر فلا تتبعوها نفوسكم.[٢] وإفراد الزينة مع أنها مسندة إلى الاثنين لما أنها مصدر في الأصل أطلق على المفعول، أي: ما يتزيّن به مبالغة كأنهما نفس الزينة، فوضع المال والبنين منزلة المعنى والكثرة، ويرى بعض المفسرين أن هنالك مضافا محذوفا، تقديره: مقرّ، أي: مقر زينة الحياة الدنيا.[٣] وإضافة الزينة إلى الحياة الدنيا اختصاصية أو على معنى (في) على معنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا.[٤] وفي التعبير بقوله: (زينة) بيان بديع وتعبير دقيق لحقيقتهما، فهما زينة وليسا قيمة، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح.

---

١ التفسير الكبير: ٤٥٦/٢١.

٢ الجامع لأحكام القرآن: ٤٢٣/١٠.

٣ المحرر: ٥٢٠/٣ البحر المحيط: ١٦٧/٧.

٤ روح المعاني: ٢٨٦/١٥.

المطلب العاشر: الدنيا والزهرة:

شُبهت الدنيا وزينتها بالزهرة وقيل فيها زهرة؛ لأنها سرعان ما تذبل وتذوي. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾طه: ١٣١ والآية جاءت في سياق التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده بعدم النظر فيما أعطيه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرّارة، وعدم استحسان ذلك؛ فإنه فانٍ، وهو من ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾وصورة تقريب حال الدنيا في واقعها بالزهرة صورة واقعية مؤثرة تقنع النفس بحقيقتها، فإن بهجتها تفنى وتبيد، كشأن الزهر، فإنه فائق المنظر، سريع الذبول والذهاب. والزَهرة بفتح الزاي وسكون الهاء: واحدة الزَّهْر، وهو نَوْر الشجر والنباتِ. وتستعار للزينة المعجِبة المبهتة؛ لأن منظر الزّهرة يزين النبات ويُعجب الناظر، فزهرة الحياة: زينة الحياة، أي زينة أمور الحياة من اللّباس والأنعام والجنان والنساء والبنين، كقوله تعالى: ﴿فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾القصص: ٦٠ وفي التسهيل: " شبَّه نعم الدنيا بالزهر وهو النوار؛ لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل."[١] وقال ابن عطية: " شبّه نعم هؤلاء الكفار بالزهر وهو ما اصفر من النور وقيل الزهر النور جملة؛ لأن الزهر له منظر ثم يضمحل فكذلك حال هؤلاء."[٢] ولاحظ التعبير بـ﴿أَ مَتَّعْنَا﴾والإمتاع: الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الأصوات المطربة، ويشم من الروائح الطيبة، وغير ذلك من

١ التسهيل: ١٧/٢.

٢ المحرر: ٧١/٤.

الملابس والمناكح، والتفعيل يقتضي التكثير.[1] واللام في قوله: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ للعلة، والفعل متعلق بمتعنا جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا إثر إظهار بهجته حالا، أي لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم في الآخرة بسببه.[2]

المطلب الحادي عشر: تشبيه الدنيا بالماء النازل من السماء:

آثر النظم الكريم ضرب المثل لتقريب حقيقة الحياة الدنيا للناظر، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس: ٢٤ ففي هذه الآية يُضرب المثل للحياة الدنيا التي يتكالب الغافلون عليها ويبيعون آخرتهم بها فيكذبون ويظلمون من أجلها، إنما مثلها في نضارتها الغارة بها وجمالها الخادعة به كمثل ماء نزل من السماء فاختلط بالماء نبات الأرض فسقى به ونما وازدهر وأورق وأثمر وفرح به أهله وغلب على ظنهم أنهم منتفعون به فائزون به وإذا بقضاء الله فيه يأتيه فجأة في ساعة من ليل أو نهار فإذا هو حصيد ليس فيه ما هو قائم على ساق، هشيم تذروه الرياح كأن لم يكن موجودا أمس قائما يعمر مكانه أتاه أمر الله ؛ لأن أهله ظلموا فعاقبهم بجائحة أفسدت عليهم زرعهم فأمسوا يائسين حزينين. وهو تشبيه تمثيلي رائع يبدأ في وصف الحياة

---

١ اللباب: ١٣/ ٤٣٠.

٢ انظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٥٠.

الدنيا ويطلق ذكرها بدون قيود، ثم يتوسع في تمثيلها تمثيلا دقيقا مؤثرا للوصول إلى النتيجة، وهي إبراز قيمة هذه الحياة وموقف العامل منها.

كما أن هدف المثل وهو الحال الماثلة على هيئة خاصة يتجلى في تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس. قال ابن القيم: " شبَّه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزيّن في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها، حتى ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس."[1] فالتشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة، بتشبيه حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاما ومصيره حصيدا. وقد صرح بذلك الزمخشري، فقال: " هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفَّ وتكاثف، وزيَّن الأرض بخضرته ورفيفه."[2] ومن بديع هذا التمثيل مجيئه بأسلوب القصر بطريق (إنما) لتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء، ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة

---

١ الأمثال في القرآن: ١٣.

٢ الكشاف: ١٨٧/٢.

الدنيا ؛ لأن حالهم في الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجئ. والمعنى قصر حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف، فالقصر قصر قلب، بني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة.[1] وهذا يؤكد ارتباط ذكر المثل في الآية بما قبله من آيات جعلت هذه الآية تتنزّل منزلة البيان لما قبلها للوصول إلى أن هذا التمتع في الحياة الدنيا قصير محدود وآيل إلى زوال، وهذا ما أشار إليه ابن عادل الدمشقي في قوله: " لَّما قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يونس: ٢٣ ضرب هذا المثل لمن اغترّ بالحياة الدنيا، واشتد تمسكه بها، وأعرض عن التأهب للآخرة، فقال : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.."[2]. واختيار حرف الغاية (حتى) مؤذن ببلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء. واختيار حرف الشرط (إذا) مؤذن بعنصر المفاجأة الحاصل من مباغتتهم العذاب، ويؤكد ذلك ما جاء في جواب الشرط من ترديد الوقت لإثارة توقع حصول العذاب في أي لحظة في قوله: ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ وفي قوله: ﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ كناية عن مظاهر الزينة والنضارة والتمتع في هذه الحياة الدنيا، أو هي استعارة مكنية، بأن شبهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان، ويرشح لذلك ذكر ﴿ وَازَّيَّنَتْ﴾ عقب ﴿زُخْرُفَهَا ﴾ فهي استعارة مرشّحة ؛ لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزين، وحسن

---

١ انظر: التحرير والتنوير: ١٤١/١١.

٢ اللباب: ٢٩٨/١٠.

ختام الآية بقوله: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وتخصيص تفصيلها بهم؛ لأنهم المنتفعون بها كما أنه يتناول تعريضا بأن الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم. وبقي أن نقف على سر تشبيه الحياة الدنيا بالنبات، إذ هو يحتمل أكثر من وجه: أحدها: أنّ عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا، كعاقبة هذا النبات، الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به، وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا، إذا عظمت رغبته فيها، يأتيه الموت، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ الأنعام: ٤٤ وثانيها: أنه - تعالى - بيَّن أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها، لا يحصل له عاقبة تحمد.[1]

* * *

١ انظر: التفسير الكبير: ٢٣٧/١٧ اللباب: ٣٠٢/١٠- ٣٠٣.

خاتمة:

وبعد هذا التطواف، فقد خرج البحث بنتائج، أبرزها:

- وقف هذا البحث على جميع تنوعات الحياة الدنيا وأثرها في التعبير القرآني، وهي ظاهرة أبرزت وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم وتفرّده.

- أبرز البحث تنوع المقامات التي ورد فيها ذكر الدنيا.

- أبرز البحث التنوع الملحوظ في الحديث عن الدنيا؛ ذلك أن القرآن الكريم مرة يأتي باللفظ وصفًا للحياة، ومرة يأتي به غير ذلك.

- أظهر البحث ارتباط الدنيا في عرضها في القرآن الكريم وفي كثير من أحوالها بالمقابلة مع الدار الآخرة.

- أظهر البحث قوة الرابطة بين المتاع والدنيا في التعبير عن أحوالها ومجيئه كثيرا بأسلوب التأكيد وسر ذلك.

- برز أسلوب القصر في عرض أحوال الحياة الدنيا جليّا وبأقوى طرقه لإظهار حقارتها ودناءتها، وبرزت من طرق القصر أقواها تأكيدا كالنفي والاستثناء وإنما.

- كما كثر استعمال أسلوب الشرط في أثناء الجملة المتحدثة عن الدنيا.

- ارتبط مفهوم الغاية بمنكري البعث كثيرا.

- كما كان للمثل دور كبير في تقريب صورة الحياة الدنيا للناظر.

- برز تشفيع الترغيب بالترهيب والعكس في ذكر أحوال الدنيا.

- ومع تنوع المقامات لعرض الحياة الدنيا إلا أنها تؤكد على حقيقة مهمة، هي حقارة الدنيا بجانب الآخرة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع:

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد. (١٤١٩). تفسير القرآن العظيم. (تحقيق أسعد محمد الطيب). (ط٣). السعودية: مكتبة نزار الباز.
- ابن جزي، محمد بن أحمد. (١٤١٦). التسهيل لعلوم التنزيل، (تحقيق: د. عبد الله الخالدي). (ط٢). بيروت: شركة دار الأرقم.
- ابن جماعة، محمد بن إبراهيم. (١٤١٠). كشف المعاني في المتشابه من المثاني. (تحقيق د. عبد الجواد خلف). (ط١). المنصورة: دار الوفاء.
- ابن عادل، عمر بن علي. (١٤١٩). اللباب في علوم الكتاب. (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض). (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية.
- ابن عباد، إسماعيل. (١٤١٤). المحيط في اللغة. (تحقيق محمد آل ياسين). بيروت: عالم الكتب.
- ابن عجيبة الحسني، محمد بن المهدي. (١٤١٩). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. (تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان). (ط٢). القاهرة: حسن عباس زكي.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. (١٤٢٢). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (تحقيق عبد السلام عبد الشافي). (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. (د ت). تأويل مشكل القرآن. (تحقيق إبراهيم شمس الدين). بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. (١٣٩٨). غريب القرآن. (تحقيق أحمد صقر). دار الكتب العلمية.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٤٠٦). الأمثال في القرآن. (تحقيق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد). (ط٢). مصر: مكتبة الصحابة.

- ابن كثير، عبد الله بن إسماعيل. (١٤٢٠). تفسير القرآن العظيم. (تحقيق سامي سلامة). (ط٢). دار طيبة.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (١٩٨٥). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. (تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله). (ط٦). دمشق: دار الفكر.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. (١٤٢٠). البحر المحيط في التفسير. (تحقيق صدقي محمد جميل). بيروت: دار الفكر.
- أبو السعود، محمد بن محمد. (د ت). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الآلوسي، محمود بن عبد الله. (١٤١٥). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. (تحقيق علي عبد الباري عطية). (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
- الأزهري، محمد بن أحمد. (٢٠٠١). تهذيب اللغة. (تحقيق محمد عوض مرعب). (ط١). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الإسكافي، محمد بن عبد الله. (١٤٢٢). درة التنزيل وغرة التأويل. (تحقيق د. محمد مصطفى آيدين). (ط١). مكة: جامعة أم القرى. جامعة أم القرى.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢). صحيح البخاري. (تحقيق محمد زهير). (ط١). دار طوق النجاة.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر. (د ت). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر. (١٤١٨). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي). (ط١). بيروت: دار إحياء التراث.
- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد. (١٤١٨). الجواهر الحسان في تفسير القرآن. (تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود). (ط١). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الدسوقي، محمد عرفة. (٢٠١٢). حاشية الدسوقي على مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. (تحقيق عبد السلام محمد أمين). دار الكتب العلمية.
- الراغب، الحسين بن محمد. (١٤٢١). المفردات في غريب القرآن. (تحقيق صفوان الداودي). (ط١). دمشق: دار القلم.
- زادة، محمد بن مصلح. (١٤١٩). حاشية محيي الدين زادة على تفسير البيضاوي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الزمخشري، محمود بن عمر. (١٤٠٧). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري. (ط٣). بيروت: دار الكتاب العربي.
- الشنقيطي، محمد الأمين. (١٤١٥). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، بيروت: دار الفكر.
- الشوكاني، محمد بن علي. (١٤١٤). فتح القدير. (ط١). دمشق: دار ابن كثير.
- الطبري، محمد بن جرير. (١٤٢٠). جامع البيان في تأويل القرآن. (تحقيق أحمد محمد شاكر). (ط١). مؤسسة الرسالة.
- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم. (د ت). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، ابن الزبير الثقفي الغرناطي. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر. (١٤٢٠). التفسير الكبير. (ط٣). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د ت). كتاب العين. (تحقيق د. مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي). دار ومكتبة الهلال.
- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب. (١٣٩٣). بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (تحقيق محمد علي النجار). القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

- القاسمي، محمد جمال الدين. (١٤١٨). محاسن التأويل. (تحقيق محمد باسل عيون السود). (ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
- القرطبي، محمد بن أحمد. (١٣٨٤). الجامع لأحكام القرآن. (تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش). (ط٢). القاهرة: دار الكتب المصرية.
- الكرماني، محمود بن حمزة. (د ت) أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان. (تحقيق عبد القادر أحمد عطا). دار الفضيلة.
- الواحدي، علي بن أحمد. (١٤١٢). أسباب نزول القرآن، (تحقيق عصام الحميدان). (ط٢). الدمام: دار الإصلاح.
- الواحدي، علي بن أحمد. (١٤١٥). الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (تحقيق صفوان داوود،). (ط١). دمشق: دار القلم.

* * *

- Al-Kirmani, Mahmoud bin Hamza, (n.d.). The secrets of repetition in the Qur'an called al-Burhan in the direction of the qur'an because of its argument and statement. verified by Abdelkader Ahmed Atta. Fadila House.
- Al-Wahidi, Ali Bin Ahmed. (1412), The reasons for the revelation of the Qur'an. verified of Essam al-Hamidan). (Edition 2). Dammam: AL Eslah House.
- Al-Wahdi, Ali Bin Ahmed (1415). Al-Wajeez fi tafseer al-kitab al-Azeez. Verified by Safwan Dawood, Edition 1. Damascus: Dar al-Qalam.

❊ ❊ ❊

- Al-Bukhari, Mohammed bin Ismail (1422). Sahih Al-Bukhari. verified of Mohammed Zuhair). (i1). Dar Tawq Al-Najah.
- Al-Buka'i, Ibrahim Bin Omar. (n.d.) Nadhm Al-Durar fi tanasub al-ayat wa al-suwar. Cairo: Islamic Book House.
- Al Baidawi, Abdullah Bin Omar (1418). Anwar Al-Tanzeel wa asrar al-ta'weel.. verified by Mohammed Abdul Rahman Al-Marashli). Edition 1. Beirut: Dar Ihaya' Al-Turath.
- Al-Thaalbi, Abdul Rahman bin Mohammed (1418). Al-Jawaher Al-Hisan fi tafseer Al-Qur'an. verified by Sheikh Mohammed Ali Mouawad and Sheikh Adel Ahmed Abdul-Maqdis. Edition 1. Beirut: Dar Ihya' Al-turath al-'Arabi.
- Al-Desouki, Mohammed Arafa (2012). Al-Desouki's footnote on the alternative of the Mind on the books of the aarib. verified by Abdessalam Mohamed Amin). Scientific Books House.
- Al-Ragheb, Hussein bin Mohammed (1421). Al-mufradat fi ghareeb al-Qur'an. Verified by Safwan Daoudi. Edition 1. Damascus: Dar al-Qalam.
- Zadeh, Mohammed bin Musleh (1419). Hashiyat Muhyiddin Zadeh 'al tafseer Al Baidawi. Beirut: Dar Al-Kutub al-'Ilmiyah.
- Al-Zamakhshari, Mahmoud Bin Omar (1407). The Al-Kashaf 'an haqa'iq ghawamidh al-tanzeel, Al-Zamakhshari. (Edition 3). Beirut: Dar AlKitab Al-Arabiy.
- Al-Shanqiti, Mohammed al-Amin (1415). Adwa\ al-Bayan fi Idah al-Qur'an bil-Qur'an, Beirut: Dar Al Fikr.
- Al-Shawkani, Mohammed Bin Ali (1414). Fath Al-Qadeer. Edition 1. Damascus: Dar Ibn Kathir.
- Al-Tabari, Mohammed bin Jarir (1420). Jami' Al-Bayan fi ta'weel Al-Qur'an. verified by Ahmed Mohamed Shaker). Edition 1. Al Resala Foundation.
- Al-Ghirnati, Ahmed Bin Ibrahim. (n.d.). Malak Al-Ta'weel Al-Qati' bidhawi al-ilhad wa al-ta'teel fi tawjih almutashabih allafdh min ay al-tanzeel, ibn al-Zubair al-Taqfi al-Gharnati. Beirut: Dar Al-Kutub al-'Ilmiyah.
- Al-Fakhr al-Razi, Mohammed bin Omar (1420). The Great Interpretation. (Edition 3). Beirut: Dar Ihya' Al-turath al-'Arabi.
- Al-Farahidi, Al Khalil bin Ahmed (n.d.). Kitab AL-'Ayn. verified by Dr. Mehdi Al-Makhzoumi, Dr. Ibrahim Al-Samarrai). Al Hilal House.
- Al-Fairozabadi, Mohammed bin Yaacoub (1393). Basa'ir Dhawi Al-Tamyeezfi lata'if al-kitab al-'Azeez. verified of Muhammad Ali al-Najjar. Cairo: Supreme Council for Islamic Affairs.
- Al-Qasimi, Mohammed Jamal al-Din (1418). Mahasin al-Ta'weel. Verified by Muhammad Basil Oyoon al Soud. Edition 1. Beirut: Dar Al-Kutub al-'Ilmiyah.
- Al-Qurtubi, Mohammed bin Ahmed (1384). Al-Jami' li-Ahkam Al-Qur'an. verified by Ahmed Bardouni and Ibrahim Atfish. (Edition 2). Cairo: Egyptian Book House.

List of References:

- Ibn Abi Hatem, Abdul Rahman bin Mohammed (1419). Interpretation of the Great Qur'an. (Verified by Asaad Mohammed al-Tayeb), Edition 3, Saudi Arabia: Nizar al-Baz Press.
- Ibn Jazi, Mohammed bin Ahmed (1416). Al-Tas-heel li'uloum Al-tanzeel, verified by Abdullah Al-Khalidi. (Edition 2). Beirut: Dar al-Arkam.
- Ibn Jama'ah, Muhammad ibn Ibrahim (1410). Kashf Al-Maani fi al-mutashabih min almathani. verified by Dr. Abdul Jawad Khalaf, edition 1. Mansoura: Dar al-Wafa.
- Ibn Adel, Umar Ibn Ali (1419). Al-Lubab fi 'uloum al-Kitab. verified by Adel Ahmed Abdel-Maqdis and Ali Mohamed Mouawad, Edition 1. Beirut: The House of Scientific Books.
- Ibn Ashour, Muhammad al-Taher (1984). Al-Tahrir wa al-Tanweer. Tunisia: Al-Dar Tunisiah.
- Ibn Atiyah, Abdul Haq Ibn Ghalib (1422). Al-Muharrir Al-Wajeez fi Tafseer Al-Kitab Al-Azeez. verified by Abdessalam Abdel Shafi, 1st edition, Beirut: The House of Scientific Books.
- Ibn Qutaiba, Abdullah ibn Muslim (n.d.). Ta'weel mushkil Al-Qur'an. Verified by Ibrahim Shamseddine's investigation. Beirut: Dar al-Kutu Al-'Ilmiyah.
- Ibn Qutaiba, Abdullah ibn Muslim (1398). Ghareeb Al-Qur'an. Verified by Ahmed Saqr, The House of Scientific Books.
- Ibn Qayyam al-Jawziya, Muhammad ibn Abu Bakr. Al-Amthal fi Al-Qur'an. (Abu Hadifa Ibrahim bin Mohammed's investigation. (Edition 2). Egypt: Sahaba Press.
- Ibn Kabir, Abdullah bin Ismail (1420). Interpretation of the Holy Qur'an. Verified by Sami Salameh. Edition 2. Tiba house.
- Ibn Hisham, Abdullah bin Yusuf (1985). Mughni Al-Labeeb 'an Kutub Al-A'areeb. verified by Mazen Al Mubarak, Mohammed Ali Hamdallah). Edition 6. Damascus: Dar al-Fikr.
- Abu Hayyan al-Andalusi, Muhammad ibn Yusuf (1420). Al-Bahr Al-Muheet fi Al-Tafseer. Verified by Sedki Mohamed Jamil. Beirut: Dar Al Fikr.
- Abu al-Saud, Mohammed bin Mohammed (n.d.) Irshad al-aql al-saleem ila mazaya al-kitab al-kareem. Beirut: Dar Ihya al-turath al-'Arabi.
- Al-Alusi, Mahmoud bin Abdullah (1415). Rouh al-maani fi tafseer al-qur'an al'adheem wa alsab' al-mathani. verified by Ali Abdelbari Attia. Edition 1. Beirut: The House of Scientific Books.
- Al-Azhari, Mohammed bin Ahmed (2001). Tahdheeb al-Lughah. Verified by Mohamed Awad Mur'ib Edition 1. Beirut: Dar Ihya' Al-turath al-'Arabi.
- Al Eskafi, Mohammed bin Abdullah (1422). Durrat Al-Tanzeel wa Ghurrat Al-Ta'weel, verified by Mohamed Mustafa Aydin). Edition 1. Mecca: Um al-Qura University.

Some secrets of the Qura'anic diversity of the states of the worldly life

Dr. Abdulaziz Saleh A. Alduailej
Faculty of Arabic language
Department of rhetoric, criticism and Islamic literature.
Imam Mohammed bin Saud Islamic universety

Abstract:

The Noble Quran has carefully exposed the reality of life, its bright and deceiving effects, and its salient characteristics in order to warn people from inclining toward it or being fond of its beauties. This worldly life has been created beautiful for disbelievers, not like the Hereafter. Life is an excitement of delusion, and its excitement is short. Indeed, life is amusement and diversion like dry plants upon which rain has come down and made them become green, then turned into yellow, and finally became debris. Quran clearly affirms the shortness and triviality of life compared to the Hereafter.

Pondering about the word worldly in the Quran, one can see that it has been a collocation with five descriptions: with mataa' (i.e. enjoyment) in five eight positions, with áradh (i.e. goods) in three positions, with zinah (i.e. adornment) in two positions, with zahrah (i.e. splendor) in one position, and with harth (i.e. harvest) in one position. All of these descriptions that have been added to life go around one meaning, which is what Allah has placed in this life of temptations, pleasures, and turbulences in order to test them. This test is made in order to know those who are righteous and those who are not, those who are after the Hereafter and those who are after this worldly life. These rhetorical expressions indicate that life's decorations and deceiving brightness are one of the important obstacles toward spiritual integrity ascending in human perfection levels. As long as this obstacle exists, man will not reach any of these spiritual perfections. The current research sheds light on the rhetorical diversity and beauty that expose the effects of this worldly life from the Quranic context.